

تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة من بعد ابيه عام (٨٦هـ) وظل بها عشر سنين، وكان عهده عهد فتح ويسر ورخاء وأحبه أهل الشام، فقد بنى الجوامع (جامع دمشق وجامع المدينة والمسجد الأقصى) وفتح في خلافته فتوحاً عظيماً فأتسعت رقعة الدولة الأموية شرقاً وغرباً، وكان لحناناً لا يحسن النحو وطالما أخطأ في كلامه حتى قال له أبوه: إنه لا يلي العرب إلا من يحسن كلامه.

وكان شديد الكلف بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع والضياع، وعُرف بعطفه على الفقراء والمعوزين وأعطى المجذمين ومنعهم من سؤال الناس، وأعطى كل مُقعد خادماً وكل ضريح قائداً.

الفتوح في عهد الوليد

تمكن الوليد من إعادة الفتوح التي تمت في عهد من سبقه من الخلفاء، وقد اشتهر ثلاثة من القادة كان لهم أثر عظيم في هذه الفتوح هم:- قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير.

- أما قتيبة، فقد تولى مشرق الدولة الإسلامية، ففتح بلخ والصفد ونهر جيحون حتى وصل بخارى وفتحها بعد ان لقي عناءً كبيراً، وفي سنة (٩٣هـ) فتح مدن خوارزم صلحاً وسمرقند وبعد فتحها قرر ان يمد حدود الدولة العربية في أواسط آسيا، وكان من أثر فتح بلاد ما وراء النهر أن دخل الإسلام فيها ومضى قتيبة قدماً سنة (٩٦هـ) الى حدود الصين في محاولة لفتحها، وبينما هو في الطريق جاءه نبأ وفاة الوليد بن عبد الملك، ومع ذلك واصل السير إليها، لكن ملك الصين صالحه على شروط فرضها قتيبة عليه.

- أما محمد بن القاسم الثقفي، الذي عهد إليه خاله الحجاج في غزو بلاد الهند سنة (٨٩هـ) فحاصر ثغر الديبل وفتح عنة وبنى به مسجداً وواصل الفتح حتى بلغ نهر السند، فقاتل داهر ملك السند وكان هو وجنده يقاتلون على ظهر الفيلة فاتلوا قتالاً شديداً انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه، واستطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه في كافة أرجاء بلاد السند.

- أما موسى بن نصير الذي كان مولى عبد العزيز بن مروان، فقد قلده الوليد إفريقية سنة (٨٨هـ)، فقد استطاع بسط نفوذه في بلاد المغرب حتى بلغ طنجة هو ومولاه طارق بن زياد، ثم تحالف موسى بن نصير مع الكونت جوليان حاكم سبته للتخلص من لذريق ملك إسبانيا لعداء شخصي كان بينهما، ووجد في جيوش العرب والبربر في شمال إفريقية خير من يقوم على تحقيق أهدافه والتخلص من عدوه، ولغرض التأكد من حسن نوايا جوليان، أرسل موسى بن نصير بعد مشورة الخليفة الوليد طريف بن مالك في خمسمائة مقاتل في أربع سفن لجوليان وغزا بعض ثغور الأندلس الجنوبية وعاد محملاً بالغنائم، لهذا تشجع موسى على فتح بلاد الأندلس فكلف مولاه طارق بن زياد قائد جيشه وحاكم طنجة بهذه المهمة، وفي شعبان سنة (٩٢هـ) عبر طارق البحر في أربع سفن أعدها له جوليان في سبعة آلاف مقاتل، ولما علم الملك لذريق به جهز جيشاً بلغ سبعين ألفاً وقيل مائة ألف، فالتقى الجيشان على مقربة من وادي لكة أو بكة، ودارت الحرب دورتها على الملك لذريق الذي قتله طارق بن زياد وتشتت شمل جيشه ولأذ أغلهم بالفرار وغنم منهم مغنم كثيرة، فكتب لموسى بن نصير بذلك مما حفزه على عبور البحر ليلتحق بمولاه طارق بن زياد ويتخذان مسارين مختلفين لكنهما يؤديان إلى إسبانيا، وتوالت المدن الإسبانية كقرطبة وطليطلة حاضرة مملكة القوط وقرمونة وإشبيلية حاضرة إسبانيا ثم برشلونة شرقاً وأربونة في الجوف الإسباني، وقادس في الجنوب وجليقية في الشمال الغربي ثم توجهت معاً لفتح شمالي إسبانيا ففتحت أقاليم أرغونة وقشتالة وقطلونية وسرقسطة حتى بلغا جبال البرانس، وتم بذلك فتح إسبانيا وأراد التقدم كثيراً فبلغه عن الوليد الكف عن التقدم لأن الخليفة خشي من طموح قائده وخاف من استقلاله بتلك البلاد واستدعاه إلى دمشق هو ومولاه طارق بن زياد، وقبل وصولهما إلى دمشق مرض الوليد مرض الموت، وخلف ولده عبد العزيز بن موسى على الأندلس وولده عبد الله على إفريقية سنة (٩٦هـ)، وبالتالي فقد تيمم الخليفة سليمان بن عبد الملك على هذا القائد وجرده من كل مناصبه حتى كانت نهايته شحاذ في طرقات دمشق، أما مولاه طارق بن زياد فقد انتهت حياته في غموض كما بدأت في غموض وانقطع خبره بعد سفره.

الفتوحات في عهد الوليد

تميزت فترة الوليد بن عبد الملك بكثرة الفتوحات وتوسع الدولة الأموية في مناطق واسعة ويمكن ان تقسم هذه الفتوحات الى عدة جهات وهي:

أولاً: جهة المشرق وتضم هذه الجهة كلا من :

أ-بلاد ما وراء النهر. ب-بلاد السند

أ-بلاد ما وراء النهر:

المقصود بهذه المنطقة المحصورة بين نهري جيحون جنوباً وسيحون في الشمال وتقع هذه المنطقة في الشمال الشرقي من حدود الدولة

الفارسية القديمة وسكانها من العنصر التركي.

وكانت هذه المنطقة تتكون من عدة ممالك بعضها مستقل عن بعض، وكان الوضع السياسي لهذه الممالك غير مستقرة بفعل النزاعات

الدائمة التي كانت تحدث بينها مما شكل خطراً على المسلمين الذين تآخمت حدود بلادهم في خراسان حدود هذه الممالك، مما جعل الدولة

الأموية تفكر في وضع حد لحالة الفوضى في هذه البلاد، وذلك عن طريق ضمها إلى الدولة الإسلامية ونشر الإسلام فيها واخضاعها للنظام

الأموي. وقد اسند الوليد هذه المهمة إلى القائد قتيبة بن مسلم الباهلي وبأسناد من الحجاج بن يوسف الثقفي.

وقد بدأ قتيبة عملياته العسكرية اعتباراً من عام (٨٦هـ) فعبّر نهر جيحون واعد فتح طخارستان واعد سيطرة الامويين على مرو ، بعد ذلك تقدم قتيبة الى اقليم بخارى ، وفتحه صلحاً بعد حصار ، ثم نقض الصلح من جديد واستمرت حملات قتيبة على اقليم بخارى حوالي ثلاث سنوات ، حتى تمكن في النهاية من فتحه وضمه الى الدولة الأموية.

ثم استأنف قتيبة فتوحاته حتى وصل الى مدينة سمرقند وفتحها صلحاً سنة (٩٠هـ / ٧٠٩م) ، كما فتح مدن خوارزم سنة (٩٣هـ / ٧١٢م) ولم تلبث سمرقند ان نقضت الصلح فأعاد فتحها من جديد ، وتكمن اهمية فتح سمرقند انها ضمت مصنعاً للورق ، وهي صناعة صينية نقلها جماعة من الحرفيين الصينيين الى هذه المدينة ، وقد حمل المسلمون هذه الصناعة الى دمشق ثم الى بغداد بعد ذلك في العصر العباسي . ثم الى القاهرة وافريقيا الشمالية وصقلية والاندلس ومنها انتقلت الى اوربا في القرن الثاني عشر الميلادي.

ثم انتقل قتيبة اعتباراً من عام (٩٤هـ/٧١٣م) الى فتح مدن الشاش وفرغانة وكاشغر ، وكانت تحت سيطرة الاتراك فصادف مقاومة شرسة او اصطدم بهم أكثر من مرة حتى تمكن أخيراً من فتحها في عام (٩٥هـ/٧١٤م). وفي اثناء تقدمه في بلاد الصين جاءه نعي الحجاج ، فاغتنم لموته لذلك بعث اليه الوليد بن عبد الملك رسالة مواساة وتشجيع فأحدثت هذه الرسالة في نفسية اثرأ طيباً .

وبعد وصول قتيبة بن مسلم الى مناطق الصين جاءه رسول من قبل الامبراطور الحبشي يدعوه للتباحث في امر تقدم المسلمين في بلاد الصين وقد اسندت هذه القادة عن تجميد الفتوحات في بلاد الصين . فضلاً عن ذلك كان لهذه السفارة الاسلامية الى البلاط الصيني اهداف تجارية ايضاً ، حيث ان المسلمين لم يكونوا غافلين عن اهمية التجارة بين الشرق والغرب حيث جرت عدة محاولات منذ ايام قتيبة لضبط طرق التجار في اواسط آسيا وحماية القوافل التجارية . وتدل تعدد ارسال السفارات الاسلامية الى الصين ، على اهمية استمرار حركة التجارة بين الشرق والغرب.

فضلاً عن ذلك ان سبب توقف الفتوحات في بلاد الصين ان قتيبة بن مسلم ادرك انه يواجه امبراطورية قوية تتطلب منه استعدادات وتجهيزات لم تكن متوفرة ، مع طول خط الامدادات وصعوبة الاتصالات مع الادارة المركزية في الوقت ذاته اخذت بعض المدن المفتوحة تنتفض على الحكم الاسلامي مما تطلب اعادة اخضاعها. لذلك اقتنع قتيبة بن مسلم بنتائج هذه الفتوحات.

ب-فتح بلاد السند

المقصود ببلاد السند هي المنطقة او الأقليم الواقع في شمالي غربي شبه القارة الهندية وشرقي بلاد فارس الجنوبية. وكانت عملية فتح هذا الاقليم شبيهة بأحداث فتوحات بلاد ماوراء النهر ، حيث بدأت العمليات في سنة (٨٩هـ/٧٠٨م) ، اي بعد عملية فتح بلاد ما وراء النهر بعامين وترجع عملية الاهتمام بفتح هذا الاقليم الى عصر الخلفاء الراشدين.

وقد عهد الحجاج بهذه المهمة الى القائد محمد بن القاسم الثقفي الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ، انتقل محمد الى مكران وتمركز فيها ، وجعلها نقطة الانطلاق وقاعدة الفتح ووصل الى الديبل على ساحل بحر الهند ، وفتح وهو في طريقه اليها عدة قلاع ، ولما وصل اليها حاصرها واقترحها بعد ثلاثة ايام فهرب منها عامل داهر ملك السند لذلك اعاد محمد بن القاسم الثقفي تخطيط المدينة واسكنها اربعة الآف من المسلمين ، وجعلها قاعدة بحرية ، وكان لفتح هذه المدينة تأثير كبير على الوضع الداخلي للمدن والقوى المجاورة ، حيث هرع السكان يعرضون الصلح على المسلمين .

توجه محمد بن القاسم بعد ذلك الى البيرون ، الواقعة على الضفة الغربية لنهر السند المعروف بأسم مهران ، فصالحه اهله ، كما صالحه سكان المدن الواقعة على الضفة الشرقية للنهر ، ثم التقى امير السند داهر في مدينة مهران وانتصر عليه وقتله.

سيطر المسلمون بعد هذا النشاط الجهادي على كامل اقليم السند ثم زحف جيوشهم نحو الشمال الشرقي فقاتلهم المسلمون وانتصر عليهم ، وبعد سلسلة من الانتصارات اصبح وادي السند في قبضة المسلمين فأنصرف محمد بن القاسم الى تنظيم امور البلاد المفتوحة لكن وصول خبر وفاة الحجاج ثم الوليد ادى الى توقف العمليات العسكرية في اقليم السند.

ثانياً : الجبهة البيزنطية

انتهج الوليد نهج والده عبد الملك في الضغط على الامبراطورية البيزنطية ، والواقع انه في الوقت الذي كان فيه الامبراطور البيزنطي يخشى اتساع النشاط العسكري الاسلامي في البر والبحر كان الوليد يعمل على تحقيق الهدف الذي ظل يراود الخلفاء الامويين منذ تأسيس دولتهم الا وهو فتح القسطنطينية ، ولاسيما بعد ان اصبحت الامكانات الاسلامية متاحة للمسلمين بعد تقوية اسطولهم البحري.

وقاد هذه الحملة او المحاولات اخو الوليد مسلمة بن عبد الملك وتمكن من فتح عدة حصون ذات اهمية استراتيجية في الطرق المؤدية الى القسطنطينية ووصلت احدى فرقته الى عمق الاراضي البيزنطية.

ونتيجة لهذا النشاط الاسلامي المكثف حاول البيزنطيون ايقافه او الحد من قوة اندفاعه ، فعمدوا الى تقوية جبهة آسيا الصغرى وحصنوها بجماعات من الارمن وعينوا قادة جدد على ثغورها مما اسفر على وقف الزحف الاسلامي نحو القسطنطينية ، ثم شهد عام (٩٦هـ) تطوراً جديداً في الاحداث بعد وفاة الوليد وتولى سليمان بن عبد الملك الخلافة ، لذلك شهدت هذه الفترة تولى ثيودوسيوس الثالث امبراطوراً لبيزنطة.

المصدر: عبد القادر أفندي بدران، مختصر تاريخ دمشق.